الفصل الثالث

لمحات عابرة

من سيرة محمد بن عبد الله ﷺ

ولد محمد ﷺ في مكة في عام ٥٧١م من والد ينتسب إلى أسرة عريقة في مكة[١] يسمى عبد الله وأمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب كبير قومه وسيدهم ، ومن الموافقات الجميلة أن يلهم عبد المطلب تسمية حفيده محمداً ، وإنها تسمية أعين عليها ولم يكن العرب يألفون هذه الأعلام ، لذلك سألوه : لم رغبت عن أسماء آبائه وأجداده ؟ فأجاب : أردت أن يحمده الله في السماء ، وأن يحمده الخلق في الأرض فكانت هذه استشفافاً للغيب ، فإنه لا يوجد في الإنسانية من يستحق ازجاء الشكر والثناء كما يستحق ذلك المحمّد لما أسدى للإنسانية من خير عميم . مات والده وكان

---

(١) نور اليقين ص٨ .

في بطن أمه ، لم ير الحياة بعد ، ومن ثم ماتت أمه وهو في السنة السادسة من عمره ، وعاش في كنف جده محاطاً بحنانه وبره . ولكنه لم يكد يبلغ الثامنة من عمره حتى توفي جده بعد أن أوصى به عمه أبا طالب ، فحزن محمد لموت جده حزنه لفقد أمه واستمر في بكائه حتى شيع جده إلى مقره الأخير[1] ترك له والده خمسة من الإبل وقطيعاً من الغنم وجارية هي أم أيمن حاضنته بعد موت أمه ويمكننا القول بأنه عاش عيشة اضطرته أن يعمل ليسد رمقه ، ولا شك أن العمل لطفل في سنه وبيئته المكية هو الرعي . وامتد به العمر حتى بلغ الثانية عشرة من عمره فسافر مع عمه في تجارة إلى الشام ولا يهمنا ما حدث له من لقاءات سريعة خاطفة ، وبدأ يظهر اسم محمد في عدة أمور منها :

١ ـ حرب الفجار : اشترك فيها اشتراكاً فعلياً فمن المؤرخين من قال بأنه عمل على جمع السهام ، ومنهم من قال بأنه اشترك برمي النبال ولا شك أنه عمل بالاثنين معاً لأن الحرب استمرت أربعة أعوام متتالية[2] .

٢ ـ حضر محمد حلف الفضول وكان ينص هذا الحلف على حماية المظلوم حتى يؤدى إليه حقه وكان يقول فيه (لقد شهدت في

---

(١) الحقبة المثالية .

(٢) طبقات ابن سعد الجزء الأول ص١١١ .

دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعي به في الإسلام لأجبت) .

واستمرت حياته على شاكلة تختلف عن غيرها من الشباب الذين يعاصرونه ، ونشأ نشأة غريبة بين قومه ، إذ لم تغمره البيئة بتقاليدها ، ولم تطغ عليه العشيرة بعاداتها وطباعها ، فما عرف عنه في أيام طفولته الأولى أنه قلد القائمين على أمره في تقديس اللات والعزى ، وما ورث الهيبة التي كانت لهبل في نفوس قريش ، وعرف عنه أنه رفض أكل ما ذبح على النصب كما رفض عبادتها وتقديسها ، واستمر نظيفاً طاهراً في روحه واعتقاده ، لم يلوث بدنه كما لم تتلوث عقيدته .. النقية الطاهرة . ولم تحمله صولة للشباب ، ولا ميعة الصبا على معاقرة الخمر ، ومنادمة الرفاق في مجالس اللهو التي كانت منتشرة إذ ذاك في نواحي مكة بين أوساطها المختلفة بل إن اللهو البريء لم يتخذ طريقة إلى محمد ـ والسر في ذلك أن دور الشباب عنده اقترن بمرحلة التفكير والحيرة التي كانت مخيمة على العصر الذي وجد فيه ، فكان كلما همَّ بمداولة اللهو والمتاع ـ كما يصنع أقرانه ـ داهمته أفكار وتأملات ملأت كل جوانب نفسه ، وشغلت قلبه ، وبدا له البيت العتيق ، وقد تكدست في ساحة الحرم ثلاثمائة وستون صنماً جلبت من أنحاء بلاد العرب . وتحظى كلها بالتقديس والعبادة . . . وهكذا يجري الصراع بين الواقع الأليم وبين صفاء فكره . . . وعاش في دوامة من

الفكر . . ولم يجد حلاً على الرغم من طول التفكير وعمقه ، وكان كلما قلب الأمر ازداد حيرة وقلقاً . . . .

ومما زاد من حيرته حياته المستمرة مع الطبيعة واشتد صراعه مع الحقائق ، ولكن لم يجد الجواب الشافي لاستقرار النفس ، فكان يظهر في حيرة مشغلة له دائماً . . .

هذه صفاته الخاصة التي تتجلى من نظرته وحياته . . .

وأما مع بني قومه فكان أفضل قومه مروءة ، وأكملهم خلقاً ، وأكرمهم مخالطة وأحسنهم جواراً ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم عن الفحش ، وأعظمهم حلماً ، وأكثرهم أمانة ، حتى كان يلقب فيما بينهم بالأمين ، يودعون عنده ودائعهم ، ويحتكمون إليه فيما حل بينهم ، ومنها حادثة تجديد بناء الكعبة التي تثبت مكانته وحكمته ومنزلته عندهم ، فعندما أرادت قريش تجديد بناء الكعبة بعد إصابتها بالسيل وتصدع جوانبها . . . اشترك في ذلك رجالهم ونساؤهم فكان محمد يزامل عمه العباس في نقل الحجارة . . . فلما بلغوا موضع الركن ـ وهو الحجر الأسود ـ أرادوا أن يضعوه في مكانه فاختلفوا : أيهم ينال هذا الشرف العظيم ؟ . . وكان للحجر الأسود في نفوسهم منزلة من الإجلال والتقديس لا تدانيها منزلة ، واشتد بينهم الخلاف حتى هموا أن يتحاربوا لولا أن رجلاً حازماً منهم دعاهم إلى أن يحكّموا بينهم في هذا الأمر ، أول من يدخل

عليهم من باب المسجد ، فارتضوا ذلك الرأي واتفقوا عليه ، ووقفوا ينظرون أول داخل عليهم من ذلك الباب ، فكان محمد بن عبد الله ففرحوا به جميعاً واستراحوا لرؤيته ، وقالوا : هذا الأمين رضيناه !!

وكان قد عرف بينهم بسداد الرأي ، وصواب الحكم ، فقصوا عليه قصتهم وأخبروه بما كان من أمرهم ، فقال « هلموا إليَّ ثوباً » فجاءوا بالثوب ، فأخذ الثوب فبسطه على الأرض ، ثم أخذ الحجر فوضعه في وسط الثوب ، ثم قال « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، فوضعه بيده في مكانه ثم بنى عليه » .

تجارته لخديجة وزواجه منها :

وكان يرعى الغنم في أودية مكة قانعاً بنصيبه من هذا العمل على قلته ومشقته إلى أن بلغ خمسة وعشرين عاماً ، فحاول عمه أبو طالب أن يوجد له رزقاً أكثر من رعي الغنم ، فقال له : يا ابن أخي قد اشتد الزمان علينا ، وألحت سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون بمالها ، فلو جئتها فضلتك على غيرك ، فقال محمد : لعلها ترسل إلي في ذلك ؟ ولكن خديجة بلغها ما دار بين محمد وأبي طالب من محاورة فأرسلت إليه ، وجعلت له ما كانت قدرته لغيره لما بلغها من صدق حديثه ،

وعظم أمانته وكرم أخلاقه[1] وهكذا سافر في تجارتها وأرسلت معه غلامها وربح لها الكثير واستطاع بجميل أخلاقه ونبل عواطفه أن يحمل ميسرة على حبه واحترامه وبالتالي نقل كل ذلك إلى خديجة ، وارتفعت منزلته عندها ، وفعل كل ذلك في قلبها ما فعل من حب وإعجاب بالإضافة إلى ما اشتهر به من صفات الأمانة والصدق والوفاء والمروءة والشهامة . وازداد إعجابها بكل ما سمعت عن هذه الرحلة حتى اختلج قلبها في حبه ، وفكرت بالزواج منه على الرغم من رفضها لكل سيد من قريش تقدم للزواج منها ، لأنها كانت تحب الفضائل فوجدت في محمد صورة ماثلة للكمال ، ونموذجاً حياً للفضيلة في كل ما يأتي وما يدع .

وعملت لإرضائه بالزواج حتى قبل وهو مغتبط ، قرير العين ، وتم أمر الزواج ، بحضور عم خديجة عمرو بن أسد وبعض أعمام محمد بزعامة أبي طالب الذي خطب في هذه المناسبة خطبته المشهورة وهي :

الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس ، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه ثم . . إن ابن أخي محمد بن عبد الله لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به ، ولا يقاس به إلا عظم عنه ،

---

(١) الفتح الإسلامي للشيخ فخر الدين ص٢٥ .

وإن كان في المال قل ، فإن المال رزق حائل ، وظل زائل ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك[1] .

واستمر في حياة زوجية هادئة مع شريكة حياته ، في ظل من التفاهم والتعاون المتكامل .

حياته قبل بعثته :

عاش حياة فيها القلق الفكري والنفسي ، فالفكر أخذ منه كل مأخذ ، يفكر ملياً عندما رأى الحياة في اضطرابها ، والعبادات الوثنية التي لم يقبل بها يوماً من الأيام . فقد ازدادت سفهاً في نظره ، وقارب محمد بن عبد الله الأربعين من عمره ، وهو على إطراقه العميق وتفكيره المتواصل في صمت يلفت النظر ، فأحب الابتعاد عن ضوضاء الحياة ومشاغلها فالتجأ إلى الغار ليخفف من جلبة الحياة حوله ، ويلتمس في الخلوة والتفرغ الحقيقة المنشودة في خلده ، ويبحث في عمق عن الحق والهدى . . .

وتعلقت روحه فيما وراء المادة ، فتجلت على القلب بوادر المعرفة ، ومنها الرؤية الصادقة فصار ما يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، وبدأ يزداد بغضاً لما عليه قومه وتزداد عوامل الشك والحيرة في أمر إنقاذهم من الضلال الذي استعصى على الهداة

---

(١) سيرة ابن هشام .

علاجه ، فما هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن أحد غائلة شر مصيبة ! وهذه هبل واللات والعزى . . . وكل هذه لم تخلق شيئاً . . . فكان يسأل نفسه أين الحق إذن ؟ . . . أين الحق في هذا الكون الفسيح بأرضه وسمواته ونجومه ؟ أهو في الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور والدفء . . . لا ، فما هذه الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور إلا أفلاك كالأرض سواء بسواء . . . إذن هل وجدت هذه العوامل مصادفة . . . الجواب لا . . .[1] لقد كان يفكر ويتأمل وينشد المعرفة ، لاستلهام الحقيقة الأبدية واتجه بعد كل هذه الفترة من الحياة الحائرة إلى الله بصفاء السريرة ونقاء الروح وتهيؤ الفكر ، اتجه إلى الله بشكل قوي بعد الكثير من الرؤى الصادقة التي توالت عليه . . . اتجه بكل روحه إلى اعتزال قومه بعد أن ضربوا في تيهاء الضلال ، فصار يقوم الليل مرهف الذهن والقلب ، ويطيل الصوم ، وتزداد التأملات ويعيش في اشراقات وومضات عميقة في خلوة روحية . . .

وازدادت رؤاه حتى خشي على نفسه من شدة التفكير . . . وبلغ الفكر أوجه ، والروح نضجت وسمت حتى بلغت مرحلة التحمل

---

(١) الجواب : يوجد في كتاب هل الله موجود ، وكتاب العلم يدعو للإيمان ، وكتاب الله يتجلى في عصر العلم .

للعبء الثقيل إنه حمل الرسالة الكبرى .

وكانت تلك الليلة الليلاء فاتحة عهد جديد ، وبدء مرحلة حاسمة في تاريخ الإنسانية كافة ، تغير بها وجه التاريخ ، وتطورت حياة العرب تطوراً عجيباً ، واتجهت البشرية في عقائدها وعباداتها وأخلاقها نحو الحقيقة المنشودة عند كل حكيم عاقل . . . فجاءه جبريل وهو في الغار وحيداً فقال محمد عن نفسه :

فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . . . قلت : ما أقرأ ! فغتني[1] حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ . . . قلت : ما أقرأ ! قال : فغتني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ : . . قلت ما أقرأ ! قال : فغتني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلم » قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً . . . وقال : فخرجت ، حتى إذا كنت في وسط الجبل ، سمعت صوتاً من السماء يقول : (يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل) .

وبدأت بعد ذلك دعوته ، وأنزل عليه القرآن وآمن به الكثير

---

(١) كذا في الأصول والطبري والغت : حبس النفس .

وكفر به الكثير وبعد هذه اللمحة الخاطفة من حياته علينا أن نناقش فكرة الوحي على ضوء المنطق السليم والفكر المتكامل . ومن ثم نناقش بأدلة علمية منطقية صدق الرسالة والرسول لنجيب عن السؤال : هل محمد رسول ؟؟